الفروق اللغوية بين المفردات القرآنية من خلال مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني

–دراسة نظرية تطبيقية–

الدكتور الحسن شهبار
دكتوراه في الشريعة والقانون من كلية الشريعة
جامعة سيدي محمد بن عبدالله، بفاس
المغرب

مقدمة:

اهتم الراغب الأصفهاني رحمه‌الله اهتماما كبيرا بذكر الفروق اللغوية الدقيقة بين المفردات القرآنية المتقاربة، وقد اجتهد في كتابه البديع (مفردات ألفاظ القرآن) في الكشف عن العلاقة القائمة بين مادة الكلمة الواحدة، وبيان الفروق بين معاني كثير من الألفاظ التي قيل بترادفها، مع أنه رحمه‌الله لم يقصد بتأليفه لهذا الكتاب ذكر هذه الفروق، وإنما نتج ذلك من تحريه الدقة في تحديد معاني الألفاظ، ودقة فهمه لمدلول الكلمات، حتى أمكننا عدُّ كتابه من الكتب التي هي مظان الفروق بين الألفاظ.

وقد أشار رحمه‌الله في مقدمة مفرداته إلى اهتمامه بقضية الترادف والفروق، وعزمه على تأليف كتاب يوضح فيه حقيقة الفروق بين الألفاظ التي تبدو للنظرة الأولى أنها مترادفة، بينما هي ليست كذلك[1]، حتى يُعرف بذلك اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته، نحو ذكر القلب مرة والفؤاد مرة والصدر مرة... ونحو ذلك مما يعده من لا يُحق الحق ويُبطل الباطل أنه باب واحد، فيقدر أنه إذا فسر (الحَمدُ لِلهِ) بقوله: الشكر لله، و (لَا رَيبَ فِيهِ) ب: لا شك فيه؛ فقد فسر القرآن ووفاه البيان[2].

وموقف الراغب رحمه‌الله هذا مبني على قوله بنفي الترادف، وخاصة بين مفردات القرآن الكريم؛ إذ يرى أن الأصل في الألفاظ أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني، ولكن لما كانت الألفاظ بتراكيبها المختلفة متناهية، والمعاني بلا نهاية، وغير المتناهي لا يحويه المتناهي، جاء تخلف هذا الأصل في بعض الحالات كما في الاشتراك[3].

وقد تتبعت الفروق اللغوية بين المفردات القرآنية المتقاربة التي ذكرها الراغب في كتابه المفردات؛ فوجدتها تتجاوز مائة وثلاثين، واخترت في هذه المقالة قاعدة من تلك القواعد التي بينت الفرق بين الحمد والشكر، وتناولتها بالدراسة وفق الخطة التالية:

المسألة الأولى: ذكر القاعدة المختارة وتوضيحها.

المسألة الثانية: التمثيل للقاعدة.

المسألة الأولى: ذكر القاعدة المختارة وتوضيحها

- **ذكر القاعدة:**

قال الراغب رحمه‌الله: "الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخص من المدح وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكرا، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمدا"[4].

- **توضيح القاعدة:**

في هذه القاعدة يوضح الراغب رحمه‌الله الفرق بين الحمد والمدح والشكر، وهي ألفاظ متقاربة، قد يستعملها البعض بمعنى الترادف، لكن الراغب رحمه‌الله لشدة حرصه على تحري الدقة في بيان معاني الألفاظ، ذكر مجموعة من الفروق بين هذه الألفاظ المتقاربة؛ فالمدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، كبذله للمال، أو بغير اختياره، كطول قامته. أما الحمد فلا يكون إلا فيما يصدر عن الإنسان باختياره. وإذا كان الحمد يكون في مقابل النعمة وفي غير مقابلها، فإن الشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة.

المسألة الثانية: التمثيل للقاعدة

قبل ذكر أمثلة من القرآن الكريم لهذه القاعدة في الفروق التي ذكرها الراغب رحمه‌الله، سأقف عند بيان الفروق الدقيقة بين الحمد والشكر، وقد اقتصرت عليهما دون مفردة المدح لأنها ليست من مفردات القرآن الكريم؛ متبعا الخطوات التالية:

1) تعريف الحمد والشكر في المعاجم وكتب التفسير
2) تتبع ورود الحمد والشكر في القرآن الكريم
3) بيان الفروق بين الحمد والشكر
4) ذكر أمثلة للقاعدة من القرآن الكريم.

أولا: تعريف الحمد والشكر في المعاجم وكتب التفسير

- **الحمد والشكر في المعاجم:**

قال ابن منظور رحمه‌الله: "الشكر عرفان الإحسان ونشره، وهو الشكور أيضا. قال ثعلب: الشكر لا يكون إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد... والشكر مثل الحمد، إلا أن الحمد أعم منه؛ فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة وعلى معروفه، ولا تشكره إلا على معروفه دون صفاته. والشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية"[5].

وقال ابن فارس: "الشكر الثناء على الإنسان بمعروف يُولِيكَه"[6]. وقال الكفوي: "الشكر كل ما هو جزاء للنعمة عرفا فإنه يطلق عليه الشكر لغة، وهذا أعم، وقد قال الطيبي: كون الشكر صادرا من هذه الثلاث –يريد النظم المشهور فيه– إنما هو عرف الأصوليين، وإلا فالشكر اللغوي ليس إلا باللسان وحده"[7].

وذهب بعض اللغويين إلى ترادف الحمد والشكر، منهم: اللحياني، والأخفش[8].

فالحمد عند أكثر اللغويين أعم من الشكر، فلا يكون الشكر إلا في مقابلة نعمة أو معروف، بينما الحمد يكون في مقابل ذلك، ويكون في غيره، كما أن الشكر يكون بالقول والفعل والنية، وقيل يكون باللسان وحده.

❖ **الحمد والشكر في كتب التفسير:**

ذهب طائفة من المفسرين إلى أنه لا فرق بين الحمد والشكر، وفي مقدمتهم الإمام الطبري، يقول رحمه‌الله: "ومعنى (الحمد لله): الشكر خالصا لله جل ثناؤه"[9]. وكذلك فسره ابن عباس[10]، وأبو العباس المبرد، وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق وابن عطاء[11]. وذهب جمهور المفسرين[12] إلى التفريق بينهما.

ويوضح ابن القيم رحمه‌الله الفرق بين الحمد والشكر بقوله: "أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة مُتعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب. ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافا، وبالجوارح طاعة وانقيادا، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية؛ فلا يقال: شكرناالله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله. والشكر يكون على الإحسان والنعم؛ فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس؛ فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان"[13].

ثانيا: ورود الحمد والشكر في القرآن الكريم

ذكر (الحمد) بصيغ متعددة في القرآن الكريم في سبع وستين (67) موضعا؛ كما هو موضح في الجدول التالي:

صيغة الورود	عدد مرات الورود
الحمد	42
حميد	17
محمد	4
أحمد	1
الحامدون	1
محمود	1
يحمدوا	1

وبتأملنا للجدول نلاحظ أن الحمد ورد مصدرا أو صفة أو اسما، ولم يرد فعلا إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: (لَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ)[14].

وروروده في الغالب مصدرا أو صفة أو اسما، يدل دلالة واضحة أن الحمد ليس صفة طارئة لله عز وجل؛ بل إنه سبحانه وتعالى يستحق الحمد أزلا كما يستحقه أبدا، ولذلك قال سبحانه: (لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ)[15].

وحمدالله تعالى كما يقع من الإنسان، يقع من الملائكة والرعد، بل كل شيء في الكون يسبح بحمده سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: (وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ)[16].

وبملاحظة هذه الآيات؛ نجد أن حمدالله تعالى يكون أحيانا في مقابل نعمة أو فضل من الله تعالى، كالحمد على وهب الولد، كما في قوله تعالى: (اِلحَمدُللهِ اِلذِے وَهَبَ لِے عَلَى اَلكِبَرِ إِسمَٰعِيلَ وَإِسحَٰقَ)[17]، والحمد على النجاة من الظالمين، كما في قوله تعالى: (فَإِذَا اَسـ تَـوَيتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى اَلفُلكِ فَـقُلِ اِلحَمدُللهِ اِلذِے نَجّ يـنَا مِنَ اَلقَومِ اِلظَّٰلِمِينَ)[18]، والحمد على ذهاب الحزن، كما في قوله تعالى: (وَقَالُوا اُلحَمدُ للهِ اِلذِے أَذهَبَ عَنَّا اَلحَزَنَ إِنَّ رَ بَّ نَا لَغَفُور شَكُورٌ)[19]. وأحيانا يكون ثناءً على الله تعالى بصفات الكمال والجلال، مثل حمده عز وجل على عدم اتخاذ الولد والشريك (وَقُلِ اِلحَمدُللهِ اِلذِے لَم يَـتَّخِذ وَلَدا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيك فِے اِلمُلكِ وَلَم يَكُن لَّهُ وَلِيّ مِّنَ اَلذُّلِّ وَكَبِّرهُ تَكبِيراً)[20]، أو حمدا مطلقا من غير ذكر لسبب (اِلحَمدُللهِ رَبِّ اِلعَٰلَمِينَ)[21].

أما (الشكر) فقد ذكر في القرآن الكريم خمسا وسبعين (75) مرة؛ كما هو مبين في الجدول التالي:

صيغة الورود	عدد مرات الورود
تشكرون	20
شكور	12
الشاكرين	10
يشكرون	9
اشكروا	5
شاكر	4
أشكر	3
يشكر	3
شكر	2
شكرتم	2
اشكر	2
مشكورا	2
شكرا	1

ويلاحظ أن الشكر ورد فعلا في ست وأربعين (46) موضعا، وهذا فيه دلالة على أنه طارئ يتجدد بتجدد النعم.

وقد قرنه الله تعالى بالنعم في كثير من هذه الآيات، مرة بذكر لفظ (النعمة)؛ لتعم كافة النعم التي أنعم الله بها على عباده، كما في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ أَوزِعنِيَ أَنَ اَشكُرَ نِعمَتَكَ اَلتِے أَنعَمتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنَ اَعمَلَ صَٰلِحا تَرضيٰهُ)[22]، ومرة بذكر بعض النعم الخاصة، كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُم لَا تَعلَمُونَ شَيا وَجَعَلَ لَكُمُ اُلسَّمعَ وَالَابصٰرَ وَالَا فـدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ)[23].

ولعظم مكانة الشكر قرنه الله عز وجل في مواضع بالصبر، للدلالة على أنه لا يقوم بحقه إلا من رزقه الله صبرا كبيرا، أو لكونه يقابل الصبر؛ فالشكر على النعم، والصبر على النقم، كما في قوله تعالى: (إِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأَيٰت لِّكُلِّ صَبَّار شَكُور)[24]، قال قتادة رحمه الله في هذه الآية: "نِعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر"[25].

ثالثا: بيان الفروق بين الحمد والشكر

من خلال ما سبق عرضه، يتضح أن هناك فرقا بين الحمد والشكر، وبيانه كالتالي:

- الحمد أعم من الشكر من حيث المتعلق؛ فهو يكون في مقابل النعمة وفي غير مقابلها، وهو بهذا الاعتبار يعم الشكر. والشكر أخص من هذه الجهة؛ إذ لا يكون إلا في مقابل النعمة.
- الشكر أعم من الحمد من حيث الوسائل التي يكون بها؛ فالشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، وهو بهذا الاعتبار يشمل الوسائل التي يقع بها الحمد. والحمد أخص من هذه الجهة؛ إذ لا يكون إلا بالقلب واللسان.

رابعا: ذكر أمثلة للقاعدة

❖ **أمثلة الحمد:**

ذكرنا سابقا بعض الآيات التي تدل على أن (الحمد) يكون في مقابل النعم وفي غير مقابلها، ونذكر الآن بعض الآيات التي تدل على أن (الحمد) يقع بالقلب واللسان فقط، ولا يكون بالجوارح؛ فقد قرنه الله تعالى بالقول في كثير من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: (قُلِ الحَمدُ لِلهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الذِينَ اَصطَفَىٰ)[26]، وقوله تعالى: (وَقِيلَ اَلحَمدُ لِلهِ رَبِّ العَٰلَمِينَ)[27]، ونحوها من الآيات التي تدل على أن الحمد يكون بالقول، ومعلوم أن القول يشمل قول القلب وقول اللسان؛ إذ لا يصح قول اللسان مع إنكار القلب.

❖ **أمثلة الشكر:**

سبق ذكر بعض الآيات التي تدل على أن (الشكر) يكون في مقابل النعم، ونذكر الآن بعض الآيات التي تبين أنه يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية. فمن ذلك قوله تعالى: (اِعمَلُوا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكرا)[28]. قال ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية"[29]، وقال سفيان بن عيينة رحمه الله في تأويل قوله تعالى: (أَنُ اُشكُر لِے وَلِوَٰلِدَيكَ)[30]، أن المراد بالشكر الصلوات الخمس[31]؛ ولهذا قال القرطبي رحمه الله: "ظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان"[32].

خاتمة:

لقد ظهر لنا من خلال دراسة هذه القاعدة سعة علم الراغب رحمه‌الله، وشدة تحريه ودقته في كتابه (المفردات)، هذا الكتاب الذي يعد موسوعة تضمنت مجموعة كثيرة ومتنوعة من قواعد التفسير، منها ما يدخل ضمن الأوجه التي تُستعمل فيها بعض الألفاظ، ومنها ما يدخل في بيان اختصاص ألفاظ باستعمالات معينة، ومنها ما يدخل في تحديد المعنى بحسب الاعتبار أو الإضافة، ومنها ما يدخل في حروف وفائدتها حسب السياق، ومنها ما يدخل في بيان الفروق الدقيقة بين الألفاظ المتقاربة، وهو الغالب عليها.

وإن هذه القواعد لا زالت تحتاج إلى مزيد من التمحيص والدراسة من قبل الباحثين والدارسين، وبدراستها يكون الباحث قد قدم خدمة جليلة لكتاب‌الله تعالى، وللمشتغلين بعلومه وتفسيره.

الهوامش:

(1) للأسف لم يُعثر على هذا الكتاب لحد الآن.

(2) ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: 55-56. تح: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة السادسة، 1435هـ/2014م.

(3) ينظر: مقدمة تفسير الراغب الأصفهاني، ص: 395. طبعت ملحقة بكتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن)، مطبعة الجمالية، مصر، الطبعة الأولى، 1329هـ.

(4) الراغب الأصفهاني، م.س، ص: 131.

(5) ابن منظور، لسان العرب، باب الشين، مادة شكر. دار صادر، بيروت.

(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، كتاب الشين، باب الشين والكاف وما يثلثهما. تح: عبد السلام هارون. المجمع العلمي العربي الإسلامي، 1399هـ/1979م.

(7) أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص: 439. تح: د. عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1433هـ/2012م.

(8) ابن منظور، م.س. باب الشين، مادة شكر.

(9) الطبري أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 135/1. تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.

(10) الطبري، م.س. 135/1.

(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 133/1. تح: هشام سمير البخاري، المكتب الإسلامي، بيروت، ودار عالم الكتب، الرياض، 1423هـ/2003م.

(12) منهم: ابن كثير في تفسيره: 128/1. والقرطبي في تفسيره: 134/1. والبيضاوي في تفسيره: 42/1. وابن الجوزي في تفسيره: 8/1.

(13) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 246/2. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1393هـ/1973م.

(14) سورة آل عمران، الآية: 188.

(15) سورة القصص، الآية: 70.

(16) سورة الإسراء، الآية: 44.

(17) سورة إبراهيم، الآية: 41.

(18) سورة المومنون، الآية: 28.

(19) سورة فاطر، الآية: 34.

(20) سورة الإسراء، الآية: 110.

(21) سورة الفاتحة، الآية: 1.

(22) سورة الأحقاف: 15.

(23) سورة النحل: 78.

(24) سورة إبراهيم: 7.

(25) تفسير الطبري: 523/16.

(26) سورة النمل، الآية: 61.

(27) سورة الزمر، الآية: 72.

(28) سورة سبأ، الآية: 13.

(29) تفسير ابن كثير، م.س: 500/6.

(30) سورة لقمان، الآية: 13.

(31) تفسير القرطبي، م.س: 277/14.

(32) نفسه: 277/14.